الكلمة الرئيسية

شفيق الحوت[1]

أيها الإخوة الأعزاء، السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. أصافحكم فرداً فرداً فكلكم أصدقاء. أعترف أنه لولا مكانة الدكتور محسن صالح في قلبي، ومكانة مركز الزيتونة، لما رأيتموني اليوم هنا. لقد ترددت كثيراً قبل الموافقة على المشاركة، ولكني كما ترون لم أستطع في النهاية إلا أن أقول نعم لهذا الصديق العزيز.

كنت متردداً لأنني كنت أخشى أن أعكس بعض ما في نفسي عليكم، رغم ثقتي بأنكم مثقلون مثلي، بأعباء هذه المرحلة المحبطة، حيث نواجه حقائق ووقائع وأحداث لا يمكن لعقل، مهما كان متواضعاً، أن يدرك أسبابها أو يجد أي مبرر لها. كما أنني كنت متردداً لأنني أعرفكم جميعاً، وسبق أن قرأت لكم، وسمعت لكم، وأعرف أفكاركم واجتهاداتكم، وليس لدي من جديد أضيفه لما تملكونه من آراء ومعلومات. ولكنني سأحاول أن أعطي بعض الملاحظات المستنبطة من تجربة امتدت قرابة نصف قرن من الزمن.

لا داعي للقول بأن القضية الفلسطينية هي أعقد قضية شهدها التاريخ الحديث، إذ لا يوجد في العالم كله مشكلة تشبه القضية الفلسطينية، بما في ذلك قضايا الأوطان التي تعرضت للاستعمار الاستيطاني الكولونيالي، وهي تختلف عما شهدناه في فيتنام والجزائر وأفريقيا وأماكن أخرى من العالم. وأكاد أقول بأنني وصلت إلى قناعة أن القيادة التي تحقق النصر في فلسطين، لا بدّ أن تكون قيادة غير عادية خلاقة مبدعة، يجب أن تتميز وبفارق كبير عن القيادة المضادّة، وأعني بذلك قيادة الحركة الصهيونية. لذلك لن نتحدث طويلاً فيما نعرفه جميعاً عن عدونا. ولأني أريد أن أتكلم عن عدو آخر لنا، هو فينا، نحن عرباً وفلسطينيين. يمكن أن نقول إننا في كثير من المواقف في جزء من تاريخنا، كنا أعداء لقضيتنا وحركتنا ونضالنا. ولا أقصد بهذا أعداءنا الذين انحرفوا عن وعي، من مخترقين أو مندسّين وعملاء، ولكنني أقصد كذلك، وأضيف إليهم أولئك

[1] عضو اللجنة التنفيذية وممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان سابقاً.

الذين ارتكبوا من الأخطاء ما يعادل الجرائم في حقّ النضال الفلسطيني.

إنها مناسبة لدعوة حركة حماس لدراسة تجربتها بشكل مختلف عما زعمنا أنه كان دراسة لتجارب الفصائل الأخرى في الماضي، والتي اتضح فيما بعد أنها لم تكن على المستوى النقدي المطلوب، وهنا أحمّل المثقفين جزءاً من المسؤولية، إذ كان ثمة نفاق لقيادات الفصائل على اختلاف أنواعها، فكان أن وصل بنا الحال إلى ما نحن عليه اليوم.

ومن الملاحظات التي أريد أن ألفت النظر إليها؛ أولاً ضرورة التدقيق في المصطلحات، إذ أصبحت أشعر أننا في القضية الفلسطينية نتكلم، بعض المرات، بألفاظ ومصطلحات لا يوجد لها مسميات. نحن مثلاً سمينا أنفسنا حركة تحرر، وتارة كنا ثورة، ثم تحولنا إلى حركة استقلال وطني، وتحدثنا عن عمل فدائي، ثم تحدثنا عن مقاومة، ثم بدأنا نتحدث عن قيام دولة؟ ماذا نحن؟ وهذا الذي يجري في الساحة الفلسطينية اليوم ما هو عنوانه الحقيقي؟ وأقول نحن، وأشمل الجميع من أصغر فصيل فلسطيني إلى أكبر الفصائل. هل نحن مقاومة؟ هل نحن حركة تحرر وطني؟ هل نحن حركة استقلال وطني؟ هل نحن بصدد التوصل لدولة، لأية دولة فلسطينية. إذا كنا نحن، مثقفين أو مناضلين مسؤولين، في حيرة في وصف وضعيتنا وموقعنا من الحركة السياسية العالمية، فما بال إخوتنا المواطنين العاديين، الذين كانوا مثالاً للعطاء السخي لجميع الفصائل الوطنية الفلسطينية؟ لذلك أرجو منكم التدقيق في المصطلحات، والقضية ليست قضية لغوية، بل لأن لكل تعبير من هذه التعبيرات معناه ومقوماته وأساليب التعامل معه.

الملاحظة الثانية، تتعلق بموضوع الأيديولوجيات والنضال السياسي. في رأيي أنه لم يكن بين الفصائل الفلسطينية، قبل ظهور حماس والجهاد الإسلامي، ثمة خلافات أيديولوجية حقيقية، وإنما كانت عناوين لتبرر القبليات الجديدة التي ظهرت في الساحة. فتح مثلاً، كانت تجمّعاً لكل الأفكار السائدة؛ ففيها اليمين، وفيها اليسار، وفيها المتدين، وفيها الملحد، فكانت تجمعاً وطنياً غير مهتم بمسألة الأيديولوجيات ويعدّها كلاماً فارغاً. أنا أذكر الأخ المرحوم خليل الوزير، الذي سألته ذات مرة عن الخلفية الفكرية التي تعمل فتح على أساسها؟ فقال: الثورة تصنع أفكارها. أبو جهاد كان بطلاً من أبطال الثورة الفلسطينية، لكن من الناحية الثقافية لم يكن على المستوى نفسه. والجبهة الشعبية تفرّع منها ثلاث جبهات: القيادة العامة، الجبهة الشعبية، والجبهة الديموقراطية، ما هي الخلافات الأيديولوجية بينها؟ كلهم كانوا عروبيين

ثم تحولوا إلى الماركسية، وبعدها احتاروا في أمرهم. في الحقيقة، كنا كمن يترجم ويستعير مصطلحات كانت في الستينيات شائعة في أوروبا، ونحاول أن نلبّسها على واقعنا الفلسطيني، ولكن دون جدوى. والآن دخلت حماس – وليعذرني إخوتي في حماس – وتكاد تختصر في سنوات نضالها الأخيرة، المشوار نفسه الذي خاضه غيرها، وأخشى أن يصيبها ما أصاب فتح وغيرها؛ إذ نبع الكل في التطرف وصبّ أخيراً في الاعتدال، والكل تكلم عن الكفاح المسلح، وانتهى بالتفاوض السياسي. هذه الإشكالية بين الأيديولوجية والممارسة السياسية قضية بحاجة إلى إخوتنا المثقفين لكي يتدخلوا فيها وبقوة. وأقول إنني، إذا نسبت نفسي إلى المثقفين، وأشمل معي إخوتي المنتسبين إلى هذا اللقب: نحن قصّرنا كثيراً. وأكاد أقول إن المثقف الفلسطيني، كان جباناً أمام الفصائل الثورية الفلسطينية، إذ استطاعت البندقية الفلسطينية أن ترهب الفكر والمفكر الفلسطيني باستثناء قلة، استطاعوا أن يجهروا برأيهم، وأن يقولوا كلمتهم الشجاعة في الوقت المناسب، عندما كانت الكلمة مطالبة بأن تفصح عن نفسها. المثقفون الآن مطالبون بدور أكثر جرأة في نقد الواقع السياسي الحالي.

الملاحظة الأخيرة، إني أدعوكم وأرجوكم أن نركز في هذا اللقاء محاوراتنا على هدي المصلحة الوطنية. أنا أضع المصلحة الوطنية فوق الموضوعية، وأفترض أنه من غير الجائز أن يكون هناك تعارض بين المصلحة الوطنية والموضوعية. المصلحة الوطنية اليوم ودائماً وأبداً تدعو إلى وحدة وطنية، بل إلى نوع مميز من الوحدة الوطنية. لا أقول وحدة وطنية على طريقة منظمة التحرير الفلسطينية السابقة، نحن بحاجة إلى وحدة وطنية أكثر وعياً وأكثر استيعاباً للتجربة، أي وحدة وطنية تقرّ وتعترف أولاً، بأن المناضل الفلسطيني لا يناضل من أجل قطعة أرض فقط، وإنما لتحرير وطننا فلسطين لكي نعيش أحراراً فوق ترابها، ولكي نقرر مصيرنا دون تأثير خارجي. ونحن نشاهد الآن اقتتالاً حول مصيرنا في فلسطين قبل أن نحرر فلسطين. أنا لا أناضل، ولا أعطي حياتي من أجل قطعة أرض ورثتها عن أبي في فلسطين، ليست أرضي التي أناضل من أجلها، وإنما الوطن، هو قطعة أرض أكون فوق ترابها حراً في قول ما أشاء والتعبير عن نفسي كما أريد. نحن نريد وحدة وطنية تقرّ بوجود الآخر وبحتمية التعدد. نحن نريد الاعتراف بسنة اللّه في خلقه، أي اختلاف ألسنتكم وألوانكم. لا يمكن أن نصبح كلنا تنظيماً واحداً، أو على أيديولوجية واحدة، أو على عقيدة واحدة، وقد آن لنا أن نتعلم، فلقد تجاوزت حركتنا الوطنية الفلسطينية عمر ذلك الطفل الصغير الذي كناه في الستينيات، وأصبحنا نموذجاً من المفترض أن يعطي

الناس دروساً في العمل السياسي وفي العمل الوطني. فلا بدّ أن نقرّ بأن الاختلاف في الرأي أمر في منتهى الطبيعة. فدعونا نقرّ بهذه الحقيقة، وبالتالي نوجد الصيغ التي يمكن أن نتعاون على أساسها.

ما أبشع الحركة الوطنية عندما تكرر أخطائها. نحن ارتكبنا أخطاء رهيبة ومعيبة في تكرارها. في الأردن أولاً، ثمّ في لبنان وكأننا لم نمرّ في تجربة، بل بالغنا في الإيغال في الأخطاء. وحتى في الوطن كذلك خضنا التجربة نفسها من الأخطاء.

أيها الإخوان لا بدّ من العمل المشترك، وحتى الآن لا أعرف من سبيل عملي لإنقاذ السفينة الفلسطينية من الهلاك غير العودة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، المصادرة والرهينة حالياً في يد حركة فتح. إنها أسيرة، سجينة، معتقلة، لدى حركة فتح، يجب أن نحررها من فتح. ويجب أن يفهم إخوتنا في حماس والجهاد الإسلامي أنه لا مفرّ لهم من العمل الجادّ والصادق والصحيح لردّ الروح والمشاركة في إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية. ساعتئذٍ يتحول المجلس الوطني الفلسطيني إلى ساحة لحلّ المشاكل والتناقضات بدل أن تكون ساحات الوغى في غزة وغيرها إطاراً لحلّ الصراعات والخلافات. أرجو من اللّه أن يوفقكم في هذا اللقاء وأشكر لكم حسن الاستماع.